أثر تنامي تديّن المسلمين بالغرب

يمكننا أن نستشف أثر تنامي تدين المسلمين بالغرب من خلال ما يكتبه عنه بعض الأكاديميين الغربيين. و ما يهمنا في مثل هذه النصوص هو البحث عن البواعث السيكولوجية التي تدفعهم لاتخاذ المواقف التي هي في أغلبها معادية للإسلام و المسلمين، بدلا من مجرد الوقوف على وصف تلك المواقف. و من بين تلك النصوص النص التالي :

Dans un pays comme la France, la présence d'une Eglise catholique minoritaire mais socialement importante donnait un sens à l'incroyance, à l'athéisme, ou comme on dit pudiquement, à l'affirmation laïque. La disparition de ce point de repère a détruit l'ensemble de l'organisation idéologique de la France.

En 2006, quelques mois avant l'élection présidentielle, Gallo s'émerveillait de sa propre audace : « Quoi? Oser proclamer que la France laïque est un pays chrétien, alors que la deuxième religion du pays est l'islam et qu'il y a profusion d'églises vides, alors que les rares mosquées sont si pleines que les fidèles de Mahomet sont contraints de prier sur les trottoirs, dans des caves ou des hangars? ». Mais le sens de son angoisse est clair, le vide religieux chrétien catholique. Le vide religieux chrétien précède l'islamophobie.

Mais rien n'y fait. Dans cette France où la pratique religieuse catholique est désormais sans importance sociale, la laïcité devient laïcisme, et réunit dans une hostilité commune à un Islam fantasmé les incroyants venus de la vieille laïcité républicaine et ceux qui viennent de sortir du catholicisme terminal. L'Islam prend le statut de bouc émissaire, d'ennemi indispensable. Dans l'Europe du début du troisième millénaire, il devient la victime sacrificielle de notre mal-être métaphysique, de notre difficulté à vivre, sans Dieu, tout en clamant que notre modernité est la seule possible, la seule valable.
Emmanuel Todd, « Après la démocratie », Gallimard, Paris, 2008. *p.36*

و هذه ترجمته :

في بلد مثل فرنسا ، كان وجود كنيسة كاثوليكية مهملة من طرف الأغلبية، بالرغم من أهميتها الاجتماعية، يعطي معنى للإلحاد، أو بعبارة ملطفة كان يؤكد للعلمانية "أحقيتها". و لكن اختفاء هذا المرجع دمر كل التنظيم الإيديولوجي الفرنسي.

في عام 2006 ، قبل بضعة اشهر من الانتخابات الرئاسية ، تعجب **ماكس جالو**[1] من جرأته حين صاح قائلا :"*كيف؟ نجرؤ على الإعلان بأن فرنسا العلمانية بلد مسيحي ، في حين أن الدين الثاني في البلاد هو الإسلام ، وهناك وفرة من الكنائس فارغة ، في حين أن العدد القليل من المساجد مليئة لدرجة أن أتباع محمد يضطرون للصلاة في الشوارع ، أو في أقبية أو في مستودعات؟* ". و لكن معنى ذلك القلق واضح، فهو الفراغ الديني المسيحي الكاثوليكي، الفراغ الديني المسيحي مقدمة الإسلاموفوبيا.

فلا مفر من هذا الواقع الجديد. ففي بفرنسا هذه، حيث الممارسة الدينية الكاثوليكية لم تعد ذات أهمية اجتماعية، **تحولت العلمانية المتسامحة مع الدين إلى علمانية متطرفة ضد الدين،** و جمعت **في عدائها ضد الإسلام ملاحدة العلمانية القديمة مع الخارجين للتو من الكاثوليكية المتوقفة في آخر محطة لها.** فأصبح الإسلام بذلك هو كبش الفداء و العدو الذي لا غنى عنه. و في أوروبا مع بداية الألفية الثالثة، أصبح الإسلام الضحية المقدمة كقربان **لسوء حالنا الميتافيزيقي،** و **لصعوبة عيشنا من دون الاعتقاد في وجود إله،** في نفس الحين الذي ندعي فيه و نصيح و نصر بأن حداثتنا هي وحدها السبيل الصحيح.

الصفحة 36 من كتاب "ما بعد الديموقراطية"[2] للكاتب إيمانيال طود[3]

---

[1] ***Max Gallo*** ماكس غالو (من مواليد 7 يناير 1932 في نيس) ، وهو كاتب ومؤرخ وسياسي فرنسي. وهو عضو في الأكاديمية الفرنسية منذ 31 مايو 2007 ، بالمقعد .24

[2] كتاب منشور تحت عنوان **"ما بعد الديموقراطية"** عن دار النشر كليمار سنة 2008م. و كون الكتاب ألّف و نُشر مؤخرا فلا بد أن نجد فيه أحدث المؤشرات من باحث متخصص على ما وصل إليه موقف الغربيين من تنامي تدين المسلمين من حولهم.

[3] هو إيمانويل طود Emmanuel Todd من مواليد 1951م. كاتب فرنسي متخصص في العلوم السياسية، و علم السكان، و مؤرخ وعالم الاجتماع. تخرج من معهد الدراسات السياسية في باريس، وحصل على الدكتوراه في التاريخ من جامعة كامبريدج. و مهندس بحوث في المعهد الوطني للدراسات الديموغرافية(INED) قاده بحثه إلى الاستنتاج بأن نظم الأسرة لها دور في تكوين الأيديولوجيات الدينية والسياسية. تميز بالتنبؤات المستقبلية مثل كتاب "السقوط النهائي" سنة 1976 في شأن نهاية اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية ، و "بعد الإمبراطورية "، في شأن تحلل النظام الأميركي

تفاصيل قراءتي في النص

للإحاد علاقة بمدى و قوة التدين بالمجتمع 2
تنامي تدين المسلمين بالغرب يفقد الإلحاد مرجعيته و يدمر النظام الإيديولوجي بفرنسا 2
المفعول النفسي لتنامي التدين على الملحد خاص بدين الإسلام من دون غيره 4
أثر تدين المسلمين على "البنى المعرفية" للملحد 4
الأزمة النفسية التي يحدثها تنامي تدين المسلمين في نفوس النخب الغربية 4
دعوة من الكاتب للاستسلام للواقع الذي لا مفر منه و لمراجعة الذات 6
تحول العلمانية المتسامحة مع الدين إلى علمانية معادية للإسلام 6
رموز الإسلام مستهدفة للتعويض عن عجز استهدافَ الأزمة النفسية عند الملحد 7
الأزمة الروحية التي تعاني منها النخب الغربية و التي يكتوي بشراراتها المسلمون. 8
الأسباب الموضوعية لمواقف النخب الغربية من الإسلام و المسلمين 9
رد فعل المسلمين عند تنامي التدين بغير دينهم من حولهم 10
الـخـلاصـة 12
الـعـبـرة 12

للإحاد علاقة بمدى و قوة التدين بالمجتمع

في قول الكاتب " **في بلد مثل فرنسا ، كان وجود كنيسة كاثوليكية مهملة من طرف الأغلبية، بالرغم من أهميتها الاجتماعية، يعطي معنى للإلحاد، أو بعبارة ملطفة كان يؤكد للعلمانية أحقيتها**"[1] ثلاثة أخبار من متخصص في علم الاجتماع و هي :

1) أن الكنيسة الكاثوليكية بالغرب مهمَلة من طرف الأغلبية
2) و أنه بالرغم من ذلك فلها أهمية اجتماعية
3) و أن الكنيسة المهملة من طرف الأغلبية **تعطي معنى للإلحاد**

و بالنسبة لي كمسلم يبحث عن الدوافع النفسية من وراء معاداة الإسلام و المسلمين بالغرب فالخبر الثالث هو الأهم من بين الأخبار الثلاثة. ففيه فرضية كون **الإلحاد في ذهن الملحد لا يستمد أحقيته و قوته من ذاته بل من مدى إهمال بقية المجتمع للدين**. و يمكن الخروج من هذه الفرضية بأربعة استنتاجات:

1) ليس في ماهية و كنه الإلحاد ما يكفي من المقومات الذاتية حتى يثبت في نفس الملحد بغض النظر عن مدى التدين بباقي المجتمع من حوله.
2) و لكون الإلحاد غير مستقل في ذهن الملحد فإنه
   - ✓ يزداد قوة بمقدار ضعف و إهمال التدين في المجتمع
   - ✓ يهتز و يتزعزع و يضعف و يفقد استقراره في ذهن الملحد بمقدار تنامي التدين في المجتمع
3) بذلك يكون تنامي تدين المسلمين بالغرب مزعجا نفسيا و مستفزا للملحدين بالغرب و بغيره
4) هجوم الملحدين على الإسلام و المسلمين نتيجة لمعاناتهم من محنة و أزمة نفسية سببها تنامي تدين المسلمين من حولهم

تنامي تدين المسلمين بالغرب يفقد الإلحاد مرجعيته و يدمر النظام الإيديولوجي بفرنسا

في قول الكاتب: "**و لكن اختفاء هذا المرجع دمر كل التنظيم الإيديولوجي الفرنسي**"[2] غموض. لأنه لم يحدد فيه المرجع الذي اختفى؟ جاء في الجملة السابقة أن المرجع الذي كان يعطي للإلحاد معنى هو " **وجود**

[1] "*Dans un pays comme la France, la présence d'une Eglise catholique minoritaire mais socialement importante donnait un sens à l'incroyance, à l'athéisme, ou comme on dit pudiquement, à l'affirmation laïque.*"
Emmanuel Todd, « Après la démocratie », Gallimard, Paris, 2008. *p.36*

[2] "*La disparition de ce point de repère a détruit l'ensemble de l'organisation idéologique de la France*".

كنيسة كاثوليكية مهمّلة من طرف الأغلبية ". و قوله أن هذا المرجع قد اختفى يوحي بأن الكنيسة كاثوليكية **لم تعد** مهملة من طرف الأغلبية. و هذا ليس بصحيح بدليل ما سيأتي في باقي النص. و من خلال نفس الدليل الآتي ذكره أسفله، سنرى بوضوح أن قول الكاتب " اختفاء هذا المرجع " يعني بالضبط تنامي تدين المسلمين بالغرب.

و في استخدام الكاتب لعبارة " **دمر** كل التنظيم الإيديولوجي الفرنسي " دليل على فرضية **قوة و عنف** تلك المحنة و تلك الأزمة النفسية التي تعاني منها النخب الغربية من جراء تزعزع و اهتزاز معتقداتهم الفلسفية بسبب تنامي تدين المسلمين من حولهم. و لهذه الفرضية مؤشرات قوية تدل على صحتها و منها ما كان يروج في الإعلام الفرنسي خلال الحملة ضد ارتداء الفتيات المسلمات للحجاب. باستقراء ما نشر في الإعلام خلال تلك الحملة نجد أن تلك النخب لفرنسية قد عبرت عن قلقها و انزعاجها القوي من بعض تصرفات المسلمين التي تمليها عليهم تعاليم دينهم: و منها على سبيل المثال لا الحصر :

- ✓ ارتداء الفتيات المسلمات للحجاب،
- ✓ امتناعهن عن التردد على المسابح المدرسية المختلطة
- ✓ امتناع التلاميذ عن تناول لحم الخنزير بالمطاعم المدرسية
- ✓ امتناع المسلمات بصفة عامة عن السماح للأطباء الذكور بالكشف عنهن بالمستشفيات.
- ✓ مواظبة الشباب المسلم على القيام بالصلاة
- ✓ تردده على المساجد و لا سيما يوم الجمعة
- ✓ صيامه لشهر رمضان

و خلال الحملة ضد ارتداء الحجاب بفرنسا كانت جل النخب الفرنسية تصيح مستنكرة التزام كل هذا الشباب بالإسلام و لا سيما الفتيات من بينهن. و تتعجب من كون هؤلاء الفتية المسلمين ذكورا و إناثا، ولدوا بفرنسا و نشأوا و تعلموا في مدارسها و في بيئة أسرية تغلب عليها الأمية و شيء من إهمال التدين. فخلال هذه الحملة كان من بين النخب الفرنسية من يصرخ على الهواء بالإذاعة و التلفزيون قائلا: "***هؤلاء الفتيات المرتديات للحجاب هن بنات أمهات تربين و تعلمن في المدرسة الفرنسية***" بمعنى أنهن بنات المدرسة الفرنسية **لجيلين**. مدرسة حيث تعلمن لجيلين كاملين بأن الأديان كلها رجعية و الإسلام هو الأكثر رجعية بالنسبة للنساء بالخصوص. و بالرغم من ذلك و في غياب مؤسسات لا رسمية و لا غير رسمية داعمة للإسلام ضد تشويهه و ضد التنفير منه، هؤلاء الفتيات يلتزمن بدينهن. فيصاح أكثر من واحد من تلك النخب الفرنسية قائلا: "***مدرسة الجمهورية فشلت في أداء مهمتها***" و كأن المدرسة الفرنسية حيث الإلحاد و احتقار الأديان بصفة عامة و الإسلام خاصة يغلب على فكر المدرسين بها، كان عليها أن تجعل من الشباب المسلم إما ملحدين أو على الأقل شباب مهمل للدين.

و الأنكى من كل هذا هو كون تلك النخب الغربية الثائرة ضد تدين الشباب المسلم تقرأ في ذلك التدين رسالة تواصلية استفزازية من هذا الشباب المسلم مفادها أن "**كل ما تعلموه عن الإسلام في المدارس و سمعوه من الإعلام هو مجرد افتراء و غير صحيح و أن الإلحاد ليس فيه ما يطمئن النفس بقدر ما يطمئنها الإسلام الذي يتحاملون عليه ظلما و عدوانا**" و في الحقيقة، و كما نعلمه نحن المسلمون، أن الشباب المسلم بتدينه يتقرب من الله بوازع الإيمان و ليس أبدا من باب استفزاز الغير مسلم ملحدا كان أم غيره. و لكن النخب الغربية تصر على قراءة ذلك التدين على أنه رسائل من المسلمين بقصد استفزاز لمشاعرهم و لقيمهم التي يحسبونها، من فرط نرجسيتهم، أنها قمة الحضارة و منتهى القيم.

و للتخفيف من تلك الأزمة النفسية التي تعيشها النخب الغربية بسبب تدين الشباب المسلم، و من أجل استرجاع ما سماه الكاتب "***المرجع الذي اختفى فدمر النظام الإيديولوجي الفرنسي***" نجد تلك النخب تشجع و تساهم و تشارك بقوة في كل التظاهرات التي يقوم بها المسلمون بكل العالم، و التي تتميز بتنافيها مع تعاليم

الدين الإسلامي. ذلك لأن في ابتعاد المسلمين عن التدين **راحة نفسية لتلك النخب**. ففيه مسكنات و مهدءات لآلام الأزمة الروحية التي يعانون منها و التي أشار إليها الكاتب بوضوح في نفس هذا النص كما يأتي ذكره. فهذه التصرفات المستفزة للمسلمين المتدينين ليست نكاية فيهم بقدر ما هي مسكنات و مهدءات لتلك الأزمة الروحية التي تعاني منها النخب الغربية بسبب تنامي تدين المسلمين من حولهم و المترتبة عن معتقدات هشة و مهزوزة فلا تجد لها قرارا في أنفسهم يركنون إليه و يطمئنون به.

المفعول النفسي لتنامي التدين على الملحد خاص بدين الإسلام من دون غيره

و السؤال الذي يفرض نفسه هنا هو : "هل إزعاج تنامي التدين للنخب لغربية هو خاصيةُ دين الإسلام لما فيه من تعاليم التوحيد و من تشريع و من قيم اجتماعية و خلقية متنافرة مع المعتقدات الغربية، أم هو أثر منتظر من تنامي التدين بين الغربيين بأي دين؟" و **المرجح** عندي هو أن تلك كانت و ستظل خاصية الإسلام ليس فقط بالنسبة للملحدين بل بالنسبة

1) **لكل أشكال الشرك**. و منه انزعاج و ثورة مشركي قريش بمكة من مجرد قولة التوحيد : **"لا إله إلا الله"** حتى قبل نزول التشريع الإسلامي بالمدينة الذي قد يتهم بإزعاجهم.
2) **للمسيحية على الخصوص.** و ذلك بالنظر لأغلب مضامين الاستشراق الخاص بالإسلام و المسلمين و الذي كانت من ورائه في البداية طيلة قرون الكنيسة و رجالاتها
3) **لليهودية.** و ذلك بالنظر لموقفهم من خاتم المرسلين بالمدينة، و لكن **بصبغة عرقية عنصرية** تصر على أن تكون الرسالات الربانية من خصوصيات بني إسرائيل من دون غيرهم، كما أخبر بذلك القرآن الكريم في سورة البقرة. فلم يكن اليهود يشكون في نبوته صلى الله عليه و سلم لأنهم كانوا بنص القرآن الكريم **يعرفونه كما يعرفون أبناءهم**، و لكنهم يريدون أن تكون الرسالة الربانية من نصيبهم و خالصة لهم من دون غيرهم و لم يرقهم أن تكون من نصيب أحفاد الجارية هاجر.

أثر تدين المسلمين على "البنى المعرفية" للملحد

و حين يتحدث الكاتب عن تدمير " **كل التنظيم الإيديولوجي الفرنسي** " باختفاء ما سماه " **المرجع** " و يعني به اختفاء إهمال التدين، يمكن القول بأن " **التنظيم الإيديولوجي الفرنسي** " يعني عنده ما يعرف ب**"البنى المعرفية"** من خلال **النظريات السيكولوجية للاتصال**. إذا كان الأمر كذلك و هو المرجح عندي، فيعني حينها أن **التنظيم الإيديولوجي الفرنسي المدمر** هو تلك البنى المعرفية التي بفعل تنامي التدين تزعزعت و تشوّشت في أذهان نخب فرنسية، نخبٌ نشأت و ترعرعت في بيئة معرفية يغلب عليها الإلحاد أكثر من غيره. و في نفس المادة عرفنا أن كل رسالة تواصلية تثير في نفس المتلقي **"استجابات معرفية"** معينة بحسب **بناه المعرفية**. و مما سبق و كما سبق ذكره، يمكن القول أن تدين المسلمين بالغرب عموما و تدين الشباب منهم خاصة يُستقبل في أذهان أغلب النخب الغربية على أنها رسائل تواصلية تستفزهم نفسيا بالنظر لبناهم المعرفية العقدية المتنافرة مع التدين بصفة عامة و مع التدين بدين الإسلام بصفة خاصة. و لعل هذا ما يتسبب بأزمة نفسية عامة عبّر عنها الكاتب بقوله " **اختفاء هذا المرجع دمر كل التنظيم الإيديولوجي الفرنسي** "

الأزمة النفسية التي يحدثها تنامي تدين المسلمين في نفوس النخب الغربية

و في النص للكاتب نقرأ : " **في عام 2006 ، قبل بضعة اشهر من الانتخابات الرئاسية ، تعجب ماكس جالو**[1] **من جرأته حين صاح قائلا :"*كيف؟ نجرؤ على الإعلان بأن فرنسا العلمانية بلد مسيحي ، في حين أن الدين الثاني في البلاد هو الإسلام ، وهناك وفرة من الكنائس فارغة ، في حين أن العدد القليل من المساجد مليئة لدرجة أن أتباع محمد يضطرون للصلاة في الشوارع ، أو في أقبية أو في مستودعات؟*"** [2] ففيه شهادة

[1] ***Max Gallo*** ماكس غالو (من مواليد 7 يناير 1932 في نيس) ، وهو كاتب ومؤرخ وسياسي فرنسي. وهو عضو في الأكاديمية الفرنسية منذ 31 مايو 2007 ، بالمقعد 24.

[2] "*En 2006, quelques mois avant l'élection présidentielle, Gallo s'émerveillait de sa propre audace : « Quoi? Oser proclamer que la France laïque est un pays chrétien, alors que la deuxième religion du pays est l'islam et qu'il y a profusion d'églises*

جلية و واضحة و قوية من الكاتب على **الصياح و الصراخ** الذي أحدثه تنامي تدين المسلمين بالغرب في نفوس النخب الغربية. **فماكس كالو** هو من عِلِيّة القوم لكونه عضوا بالأكاديمية الفرنسية. و لم يتمالك نفسه بل فقد توازنه النفسي، فكان ينفجر غاضبا من تنامي مظاهر تدين المسلمين الذي، كما قال الكاتب في الجملة السابقة، قد أفقده ذلك المرجع الذي كان يعطي للإلحاد في نفسه معنى. مرة أخرى معاداة الإسلام و المسلمين دافعها أزمة نفسية سببها الإلحاد الذي لا يستقر له قرار في ذهن الملحد بتنامي التدين من حوله.

ففي ساعة الغضب تظهر بل تتفجر المتناقضات النفسية المخفية التي يعاني منها الغاضب. و يتجلى ذلك عند **ماكس كالو** حين صرخ قائلا :"***كيف؟ نجرؤ على الإعلان بأن فرنسا العلمانية بلد مسيحي؟*** " ففي ذهنه توجد بلبلة في بناه المعرفية لا يستقر لها باله، فلم يعد يعرف هل فرنسا **علمانية** أم **مسيحية** أم **أصبحت مسلمة؟؟؟** و من مكانته و من عليائه في قومه لا يجد في ذهنه من معتقدات دينية أو فلسفية راسخة تمكنه من اللامبالاة و إهمال ما يجري من حوله في مجتمعه بفرنسا و بالغرب من تحولات عقدية. و أكد الكاتب هذا التفسير لصراخ **ماكس كالو** بقوله : "**و لكن سبب ذلك القلق الواضح، هو الفراغ الديني المسيحي الكاثوليكي،و الفراغ الديني المسيحي مقدمة الإسلاموفوبيا.**"[1] و ماذا بعد الفراغ الديني المسيحي بالغرب إلا الإلحاد؟؟؟ فذلك الصراخ يفسره الكاتب **المحنة النفسية بذات الملحد** و التي تسبق تنامي ظاهرة "الخوف من الإسلام". إلا أنه نسي أو تناسى أن **الإسلاموفوبيا** كانت قبل ذلك متجدرة في الوجدان الكنسي من حيث كانت الكنيسة هي السبب في نشأة الاستشراق الخاص بالعالم الإسلامي و ما يغلب عليه من معاداة له. فهي بذلك متقدمة جدا على الملحدين في تحوّفها و توجّسها من الإسلام و في التهجم عليه عسكريا و فكريا. فالخوف و التخوف من الإسلام أصبح فقط القاسم المشترك بين النخب الملحدة بالغرب و الكنيسة. و لكن الإلحاد بسبب هيمنته على الكنيسة أصبح فقط ينوب عنها في التهجم على الإسلام و المسلمين، حتى لا تُعرض نفسها لمثل ما عرفته من احتجاجات قوية ضد ما تجرأ البابا على شهره مما يعانيه هو و كنيسته من محنة بسبب تنامي الإسلام على أرض حسبوها خالصة للدين المسيحي من دون غيره.

و بالعودة إلى هاجس ماكس كالو و إلى محنته النفسية مع تنامي تدين المسلمين من حوله، نجد نفس الكاتب يطمئنه و لعله يطمئن حتى نفسه بقوله " **ليس من المستغرب في مثل هذا السياق الذي فقدت فيه العلمانية بوصلتها باختفاء غريمها الكاثوليكية أن تعمل جاهدة على العثور على خصم آخر، و المتمثل بالمناسبة في الإسلام بالنظر لكونه آخر المعتقدات الدينية النشيطة. و توجد المفارقة في الاختيار، على وجه التحديد، لأن الممارسات الدينية عند المسلمين في فرنسا منخفضة**"[2]. مرة أخر يؤكد الكاتب على أن بوصله الإلحاد لا تستقر في الاتجاه المطمئن إلا بضعف التدين، فكانت الكنائس الفارغة على عظمتها مصدر اطمئنان للملحدين على إلحادهم. و لكن المساجد المليئة على صغرها و هزال بنيتها أفقدت الإلحاد بوصلته في نفوس الملحدين. و نعجب لكون فرنسا الاستعمارية بالرغم من علمانيتها سمحت للكنيسة في بلداننا ببناء كاتدرائيات ضخمة. لكن من بعد هذا التحليل للكاتب يظهر أنه كانت لتلك البنايات وظيفة الحفاظ على الإلحاد مستقرا في نفوس المهمرين لما يروها في المستعمرات فارغة كما هي في فرنسا.

و من جهة ثانية فمن مكان الكاتب كباحث أكاديمي لا بد أن له مصادر إحصائية يستند إليها. و إذا كانت تلك المصادر تشير إلى صحة ضعف ممارسة المسلمين لدينهم، فبالرغم من ضعفها تتهول منها النخبة الفرنسية. و لنا أن نتصور مقدار محنتها النفسية حين تصبح تلك الممارسة قوية. و الشاهد هنا هو أن هذه النخبة لا تستطيع

---

vides, alors que les rares mosquées sont si pleines que les fidèles de Mahomet sont contraints de prier sur les trottoirs, dans des caves ou des hangars? ».

[1] "*Mais le sens de son angoisse est clair, le vide religieux chrétien catholique. Le vide religieux chrétien précède l'islamophobie."*

[2] *Il n'est pas étonnant que dans un tel contexte une laïcité désorientée par la disparition de son adversaire catholique s'efforce d'en trouver un autre, en l'occurrence l'Islam, perçu comme la dernière des croyances religieuses actives. Choix paradoxal puisque, justement,* ***la pratique religieuse des musulmans de France est faible***

مرة أخرى، بما لها من بنى معرفية عقدية مهزوزة، أن تغض الطرف عن تدين باقي المجتمع و لا سيما حين يتعلق الأمر بالمسلمين. و الحال أن تدينهم في بلدانهم بالعالم الإسلامي العريض و الفسيح ما كان أبدا مصدر قلق فهو فيها ليس فقط طبيعي و عادي بل مطلوب لكونه يبعث على الطمأنينة و الأمن و الصلاح الاجتماعي في مقابل تفشي كل أشكال الفساد و ما يترتب عليه من فقر و من قلة أمن. فالتدين في العالم الإسلامي لم و لا يعني حتما الانتماء لحركات إسلامية إرهابية تنشط لقلب الأوضاع كما يَعجب النخب الغربية يتصوُّره و يحلو لها تصويره و الترويج له، من فرط الخوف على اهتزاز معتقداتها و ما يترب عليه من محنة نفسية. و في تصويره صلى الله عليه و سلم في الرسوم الكاريكاتورية بعمامة محشوة بالمتفجرات رسالة اتصالية مفادها أن تديّن المسلمين رديف الإرهاب.

دعوة من الكاتب للاستسلام للواقع الذي لا مفر منه و لمراجعة الذات

يضيف الكاتب قائلا : " **فلا مفر من هذا الواقع الجديد** "[1] و يعني بلا شك واقع تنامي تدين المسلمين بالغرب الذي يشكو منه ماكس كالو و غيره بالرغم من ضعفه، و المقلق للراحة النفسية عند جل النخب الغربية التي شبت على النفور من أي دين و على النفور من الدين الإسلامي بخاصة من جراء التاريخ الاستشراقي الطويل من جهة و لغياب المقومات الذاتية في الإلحاد و في المسيحية التي كان من شأنها أن تجعل معتنقيها لا يأبهون و لا يبالون بتنامي الدين الإسلامي من حولهم من جهة ثانية. و لا مفر فعلا من هذا الواقع لأن كل الحملات ضد ظاهرة تنامي التدين بين المسلمين فشلت، بل أتت بألا ثر العكسي لما كان يُتوقع منها. فأصبح معه المسؤولون الفرنسيون و الغربيون عامة يفكرون في احتواء التّديّن بدين الإسلام بدلا من الاستمرار باتجاه استئصاله. فأصبح الحديث بينهم عن "**الإسلام الفرنسي**" مثلا، و كأن الفرنسيين الملحدين سيصبحون يفتون للمسلمين كيف يتدينون بصفة غير مستفزة لمشاعرهم. و يتكلمون عن **تهجين الدين الإسلامي** كما تم تهجين المسيحية التي معه فقدت بمرور الزمن مصداقيتها في نفوس معتنقيها فطغى على مجتمعاتها الإلحاد. و كل ذلك من فرط جهل تلك النخب الغربية بطبيعة الإسلام. يجهلون أن هذا الذين كان منذ أربعة عشر قرنا و سيظل دائما قائما و مرتكزا على نصوص ثابتة بالرغم من كل ما عرفه تاريخه من زيغ الفرق الضالة. و يجهلون أن الاختلاف في فروعه لا يرجع فيها المسلمون إلا للعلم الموثوق و للعلماء العدول و الثقاة من دون المساس بالأصول. و يجهلون أن العلوم الإسلامية بغثها و سمينها، ليست حكرا على العلماء كما هو الحال في المسيحية، بل هي شائعة بين المسلمين في الكتب و غيرها و بكل اللغات ، فلا يُرجع فيها إلى غير المسلمين و لا إلى من يشك في إسلامه.

تحول العلمانية المتسامحة مع الدين إلى علمانية معادية للإسلام

و تأكيدا لكل ما سبق يقول الكاتب : " **ففي بفرنسا هذه، حيث الممارسة الدينية الكاثوليكية لم تعد ذات أهمية اجتماعية، تحولت العلمانية المتسامحة مع الدين إلى علمانية متطرفة ضد الدين، و جمعت في عدائها ضد الإسلام ملاحدة العلمانية القديمة مع الخارجين للتو من الكاثوليكية المتوقفة في آخر محطة لها**"[2] فبالنظر لكل ما سبق، هذا الجزء من النص بليغ و لا يحتاج إلى تعليق سوى التأكيد على أن العداء للإسلام و المسلمين هو حصيلة أزمة نفسية عقدية عند النخب الغربية أثارها تنامي تدين المسلمين من حولهم. و هذه الأزمة النفسية منحصرة في تلك النخب لأن عموم الناس لهم في هموم المعاش اليومي ما يغنيهم عن الاهتمام بظاهرة تنامي التدين من حولهم، اللهم ما تثيره هذه النخب **المريضة نفسانيا** من استعدائها على الإسلام و المسلمين. و صدق الله تعالى حين قال بعلمهم المطلق { فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ}[3]

[1] "*Mais rien n'y fait*".

[2] "*Dans cette France où la pratique religieuse catholique est désormais sans importance sociale, la laïcité devient laïcisme, et réunit dans une hostilité commune à un Islam fantasmé les incroyants venus de la vieille laïcité républicaine et ceux qui viennent de sortir du catholicisme terminal.*"

[3] البقرة 10

رموز الإسلام مستهدفة للتعويض عن عجز استهدافَ الأزمة النفسية عند الملحد

النتيجة لهذه الأزمة النفسية عند هذه النخب الغربية عبّر عنها الكاتب بقوله في باقي النص الذي نحن بصدد القراءة فيه: " **فأصبح الإسلام بذلك هو كبش الفداء و العدو الذي لا غنى عنه**"[1] نستنتج من هذا المقطع أنه حين يهاجم أفراد النخب الغربية الإسلام و المسلمين و نبي الإسلام صلى الله عليه و سلم، فكل منهم في واقع الأمر يريد أن يهاجم و أن يثور ضد التناقض الذي يحدثه تنامي تدين المسلمين بداخل ذاته من اهتزاز في عقيدته الفلسفية و مما ينجم عنه من زعزعة الاستقرار النفسي الذي يؤرقه. فالقاتل للسيدة مروة الشربيني مؤخرا بمحكمة ألمانية مثلا، لا شك أنه كان يود بفعله هذا وأد الأزمة التي تسكن عقله و قلبه و التي لا سبيل له إليها، فيراها مجسدة و ملموسة في سيدة محجبة فيهجم عليها و ينتقم بها مما يعانيه نفسيا بداخله. هذا هو التفسير الراجح لهذا التصرف الأهوج من مواطن غربي بسيط، لأنه لا يعرف ضحيته و لم تؤديه لا في ماله و لا في نفسه. و النخب التي تعاني من نفس المرض تستطيع التعويض عن مثل هذا الهجوم المادي و الدموي بالكلام الجارح في الوسائل السمعية البصرية و في المحافل السياسية و الثقافية، و بالقلم الحاد كالسكين في الصحف و الكتب، و منها الرسوم المسيئة له صلى الله عليه و سلم. و لذلك التصرف صور مماثلة بل حتى متطابقة في تاريخ الإسلام: و منها على سبيل المثال لا الحصر:

- ✓ قتل **سمية رضي الله عنها**. لا شك أن السيدة مروة الشربيني قتلت مؤخرا بألمانيا بنفس الدوافع النفسية المرضية التي قتلت بها أول شهيدة في الإسلام. القاتلان كانا يعانيان من نفس المرض، مرض التشبث بعقيدة مهتزة و مؤلمة كالضرس المسوس.
- ✓ و تعذيب سجناء أبو غريب بالعراق من طرف الأمريكين، يذكر **بتعذيب بلال و ياسر ابن عمار رضي الله عنهما** و غيرهما من مستضعفي المسلمين في فجر الدعوة بمكة. فبنفس الدوافع النفسية المرضية كان سادة قريش يستجدون من هؤلاء البسطاء تحت التعذيب **الإقرار بألهية الأوثان**. هؤلاء الأشؤاف اضطروا من شدة المرض استجداء العون و المساعدة من بسطاء القوم على تخطي أزمة نفسية تؤرقهم أحدثتها رسالة التوحيد، و إلا كان يكفيهم إقرارهم أنفسهم بصدقية شركهم من دون استجداء المساعدة من هؤلاء البسطاء من بينهم. و لكن لم يجدوا في معتقداتهم الشركية ما يكفي من المقومات الذاتية التي من شأنها أن تغنيهم عن الاهتمام بالتوحيد. و ذلك شأن كل عقيدة مهتزة من الأساس بذات معتنقها، فيخاف عليها من كل عقيدة منافسة. فكان لا يقر للمشركين قرار في أنفسهم حتى يستأصلوا أو يستضعفوا من خالفهم. و بإيماننا نحن المسلمون نعتقد أن ذلك شأن و خصوصية دين الله لما له من أثر على الفطرة.
- ✓ نفس الشيء بالنسبة لكل **الفرق الضالة في التاريخ الإسلامي**. ففي مجتمع يغلب عليه دين التوحيد الخالص تشبث عتاة المشركين بعقائدهم السابقة، فناوروا بشتى الطرق الملتوية كي يبعدوا الناس عن التوحيد الذي يشكل لهم مشكلة نفسية مرضية.
- ✓ ثم جاء دور الكنيسة الغربية التي من فرط الخوف على معتقداتها المهتزة من عقيدة تجلت لها قويتها الذاتية، فتصدت لها عسكريا. و لما فشلت في تصفية حساباتها معها بالقوة المسلحة، لجأت إلى محاربتها بالقوة الفكرية. و منها نشأ **الاستشراق الخاص بالإسلام و العالم الإسلامي**. و لكن كل تلك الجهود ما زادت عقيدة التوحيد مع مرور الزمن إلا قوة و صلابة، حيث كانت استفزازات المستشرقين مصدر تحفيز قوي لعلماء المسلمين للبحث في كنوز نصوص الكتاب و السنة و نصوص السيرة النبوة، فأغنت تلك البحوث المكتبة الإسلامية بمزيد من العلوم و بآلاف الكتب القيمة.
- ✓ و عوّض هذا الاستشراق الكنسي و بنفس الدوافع النفسية المرضية **الاستشراق المؤسساتي الأكاديمي** الذي أنشئ خدمة للاستعمار الغربي.
- ✓ و تسديد الرصاص لكتاب الله و تدنيسه اليوم من طرف جنود غربيين بالعراق و بأفغانستان، شبيه بل متطابق مع تشويهه من طرف المستشرقين. كل منهم يجد في المصحف الشريف رمزا ملموسا لرسالة التوحيد التي تعذبه في داخله فينتقم منه كل بالطريقة التي توافق وسعه، البسيط يصوب الرصاص لكتاب الله و المثقف يشوهه بقلمه.

[1] "*L'Islam prend le statut de bouc émissaire, d'ennemi indispensable*".

إلا أن الإسلام الذي حاربته النخب الغربية لقرون في عقر داره بالعالم الإسلامي حتى لا يصل إلى شعوبها، نبت و نمى في العقود الأخيرة و انتشر بقوة على أرضها بالغرب نفسه و بين الشباب المسلم و لا سيما بين فتياته، شباب مسلم ولد بالغرب و نشأ و تعلم بمدارسه من دون سواها. و هذا ما زاد من حدة الأزمة النفسية المرضية التي تعاني منها اليوم جل النخب الغربية. جعلتها هذه الصحوة الإسلامية تشك في معتقداتها التي لطال ما حسبته منتهى الرقي العقدي، في مقابل دين كانت تعتبره في بناها المعرفية، الدين الأكثر رجعية في كل المجالات. فكانت بذلك مفارقة صادمة نفسيا بقوة لتلك النخب و التي فطن كاتبنا لمعالجتها من حيث يجدر البحث فيها.

الأزمة الروحية التي تعاني منها النخب الغربية و التي يكتوي بشراراتها المسلمون.

هي أزمة اعترف بها الكاتب و عالجها في كتابه "ما بعد الديمقراطية" على أنها **حالة نفسية مرضية**. و أفصح عن ذلك بصريح العبارة فيما تبقى من النص موضوع هذه القراءة، قائلا : " **و في أوروبا مع بداية الألفية الثالثة، أصبح الإسلام الضحية المقدمة كقربان لسوء حالنا الميتافيزيقي، و لصعوبة عيشنا من دون الاعتقاد في وجود إله، في نفس الحين الذي ندعي فيه و نصيح و نصر بأن حداثتنا هي وحدها السبيل الصحيح**."[1] في هذا الجزء من النص ثلاثة مقاطع دالة بقوة على الأزمة النفسية المرضية التي تحدثها رسالة التوحيد في نفوس النخب الملحدة كما أحدثته في نفوس المشركين و المسيحيين و اليهود. ففي تلك المقاطع تحدث الكاتب بصحيح العبارة عن :

1) سوء حال النخب الغربية الميتافيزيقي
2) صعوبة عيشها من دون الاعتقاد في وجود إله،
3) إصرار هذه النخب على أن الحداثة هي وحدها السبيل الصحيح

و للحداثة على الأقل ثلاثة معاني: المعنى المادي المعيشي و المعنى السياسي و المعنى الفلسفي. و النخب الغربية في محنتها النفسية مع تنامي التدين من حولها، تتشبث بالمعنى الفلسفي للحداثة. فما الفرق بين الوجوه الثلاثة للحداثة ؟

الحداثة بمعناها المادية المعيشي: تعني قبول الشخص و المجتمع ما وصل إليه العصر الحالي من تطور علمي و تقني و قبول الانخراط في إنتاجه و في استهلاك منتجاته. و الحداثة بهذا المعنى تسعى كل الشعوب على وجه الأرض أن يكون لها فيها قصب السبق ليس فقط في الاستهلاك و لكن في الإنتاج. و عانت اقتصاديات الغرب من مثل هذه الحداثة باليابان و أصبحت تعاني منها مع العملاق الصناعي الصيني. و روسيا الاتحادية الوارثة للاتحاد السوفياتي كانت و لا زالت خائفة من أن يحوله الغرب من منتج لمثل هذه الحداثة إلى مجرد مستهلك لها على غرار الدول النامية. فالنخب الغربية تحسد المسلمين على مثل هذه الحداثة التي تعرفها جل أقطار العالم الإسلامي و بخاصة ماليزيا و الإمارات العربية المتحدة.

الحداثة بمعناها السياسي: و تعني نظم الحكم بالغرب التي تعترف جل شعوب العالم بكونها أرقى ما وصلت له الإنسانية من علاقة بين الحكام و المحكومين. و هي في الحقيقة لا تخلو من عيوب و نقائص ككل أنتاج بشري إلا أنها الأقل سوء كما قال رئيس الوزراء السابق ونسطن تشرشل. و مثل هذه الحداثة هي من أغلى مطالب أكثر الشعوب الإسلامية، و لا تنافر فيها مع الإسلام ما دامت لا موافقة للشرع من حيث لا تحل حراما و تحرم حلالا. و هذه الحداثة أيضا تحسدنا عليها النخب الغربية إن أدركناها.

الحداثة بمعناها الفلسفي: هي العيش في العصر **بتحكيم العقل من دون غيره من المصادر المعرفية الدينية و الخلقية**. فالحداثة بهذا المعنى تعتبر أن كل القيم و كل الأخلاق و كل العلاقات الاجتماعية من زواج و أسرة و حلال و حرام و صالح و طالح و حسن و معيب و قبيح هي فقط من صنع الإنسان و ليست من وحي أي

[1] "*Dans l'Europe du début du troisième millénaire, il devient la victime sacrificielle de notre mal-être métaphysique, de notre difficulté à vivre, sans Dieu, tout en clamant que notre modernité est la seule possible, la seule valable*"

قوة غيبية فوقية كالآلهة. و الرسل إذا ما آمنوا بواقعهم فما عندهم إلا عباقرة زمانهم كعباقرة و فلاسفة الإغريق. و يعتقدون أن ما نسجه إنسان الأمس **من حق إنسان كل عصر أن ينقد غزله**، لأنه لا فضل لإنسان أي زمان على إنسان أي زمان آخر. و هذه هي النظرة الإلحادية الإباحية للحداثة، و نجدها مدونة بصريح العبارة في تعريف العلمانية عند **"دائرة العمل العلماني"**[1] ببلجيكا حيث الحداثة تعني : " **إعداد تصور شخصي للحياة يقوم على أساس الخبرة البشرية ، مع استبعاد أي مرجعية دينية أو عقدية أو خارقة للطبيعة** "[2] .

و بحسب قول كاتبنا فالنخب الغربية معلقة بين محنة عقيدة فلسفية مهتزة بسبب تنامي التدين من حولها و تشبثها بحداثة تبيح لها كل شيء من دون قيود و لا شروط سوى قيود القانون الذي يبث فيه البرلمان و الذي يمكن تغييره من خلال ممثلي الشعب بعد خدمة هذا الشعب من طرف نفس النخب. و من هذا الباب دخلت شرعنة الشذود الجنسي و الزواج المثلي و تبني الزوجين المثليين للأطفال و الأمهات العازبات، و البغاء و مواخير البغاء و تأتي المسيرة بالتدرج إلى شرعنة الاتجار و تناول المخذرات. و كنموذج لإنتاج هذه الحداثة فحوى القانون التالي المنظم للبغاء كمهنة بهولندا تحت ذريعة الحماية القانونية للعاهرات من الاستغلال التجاري للرقيق البيض: "1) **النظام الاجتماعي** : العاهرات المستخدمات بالنوادي يعملن كأجيرات. و على أصحاب العمل أن يفعوا عنهن المساهمات الاجتماعية الواجبة على أرباب العمل و اقتطاع المساهمات على أجورهن . و يشملهن الاستفادة من التعويضات في حالة البطالة والمرض والحوادث... 2) **النظام الضريبي**: يختلف في طبيعته بحسب نوع ممارسة البغاء: الأجيرات يخضعن فقط لضريبة الدخل. في حين اللائي يمارسن البغاء بصفة مستقلة يدفعن الضريبة على القيمة المضافة"[3] و عليه فبالنسبة للحداثة بمعناها الفلسفي و في غياب كل القيم الخلقية الدينية، البغاء في حق النساء مهنة كباقي المهن، و العاهرة تقدم خدمة للمجتمع **ذات قيمة مضافة** و لا حرج. هكذا يحمي القانون في هولندا حقوق المرأة من الاستغلال حين تقدم هذه الخدمة للمجتمع.

الأسباب الموضوعية لمواقف النخب الغربية من الإسلام و المسلمين

قد يقول قائل بأن الهجوم على الإسلام و المسلمين من طرف النخب الغربية أسبابه موضوعية تتجلى في ما يسمى "الإسلام السياسي" و هو التوجه السياسي الذي يعتبر معاديا للغرب عند الحركات الإسلامية مع ما ينسب إليها من إرهاب. و في الواقع فمن التبسيط اختزال العوامل المؤثرة في ظاهرة اجتماعية أو نفسية في العامل الواحد من دون غيره. و لكن من بين تلك العوامل العديدة لا بد أن يكون الثقل الأكبر و الرئيسي لأحدها. و هذا ما يعتقده الكاتب. و لقد رد على هذا الطرح بقوله : " يظهر من تاريخ نشر كتاب "صراع الحضارات" أن **الخزف المرضي من الإسلام** ، و بوجه أعم ظهور نرجسية ثقافية غربية جديدة، **هما متقدمين** (زمنيا) على دخول "القاعدة" على الخط. فالعرقية الأطلسية (يعني الغربية) هي عقيدة هجومية. **فنحن المعتدون**. يكفينا إحصاء عدد القتلى في الصراع بين والولايات المتحدة وأوروبا من جهة والعالم الإسلامي من جهة ثانية للتحقق من ذلك. **خوفنا المرضي من الإسلام** هو بقدر كبير جدا **أمر ذاتي** ناتج عن **الاضطراب الديني لدينا**."[4] و نظيف

---

[1] CAL : Cercle de l'Action Laïc de Belgique

[2] " L*'élaboration personnelle d'une conception de vie qui se fonde sur l'expérience humaine, à l'exclusion de toute référence confessionnelle, dogmatique ou surnaturelle*" Source : http://www.ulb.ac.be

[3] ***I) Le régime social:*** *Les prostituées employées dans des clubs sont généralement salariées. Leur employeur doit payer les cotisations sociales patronales et prélever les cotisations salariales. Elles sont couvertes en cas de chômage, de maladie, d'accident...*
Lorsqu'elles exercent à titre libéral, les prostituées sont soumises au même régime que les autres travailleurs indépendants. ***2) Le*** *régime* ***fiscal:*** *Il diffère selon le mode d'exercice de la prostitution. Les salariées sont assujetties au seul impôt sur le revenu, tandis que celles qui exercent à titre indépendant paient également la TVA.*
Source : http://www.senat.fr **موقع مجلس الشيوخ الفرنسي** و هو

[4] "*Le Choc des Civilisations démontre par sa date de publication que l'islamophobie et plus généralement l'émergence d'un nouveau narcissisme culturel occidental sont antérieurs à l'entrée en action d'Al Quaida. L'ethno-atlantisme est une doctrine offensive. Nous sommes les agresseurs. Il n' y a qu'à faire le compte des morts du conflit, aux Etats-Unis, en Europe, et dans le monde musulman, pour le vérifier. Notre islamophobie est assez largement endogène, effet de notre propre trouble religieux*." Source : **« Après la démocratie »**

لقول الكاتب الحروب الصليبية و الاستشراق و الاستعمار، كلها سابقة و متقدمة كثيرا عن ظهور ما يسمى الإسم السياسي المعادي للغرب. مما يؤكد قوله بأن الأمر يتعلق بأمر ذاتي و نفسي له علاقة وطيدة بالمعتقدات الدينية و الفلسفية عند النخب الغربية.

رد فعل المسلمين عند تنامي التدين بغير دينهم من حولهم

بقي قبل الختام بحث مسألة ما إذا كان المسلمون يعانون من نفس الأزمة النفسية كرد فعل على تنامي تدين غير المسلمين من حولهم. الجواب على هذا التساؤل يكون من ثلاثة وجوه:

الوجه الأول و هو عقدي و وجداني صرف. للتوحيد من المقومات الذاتية الصلبة و الثابتة التي تحميه في ذهن المسلم من أي اهتزاز أمام أي معتقد آخر كالإلحاد و التثليث المسيحي و الشرك الوثني بكل أنواعه. و نفس مقومات التوحيد باستقرارها القوي في قلب المؤمن تغنيه عن الاهتمام بتنامي تدين غير المسلم من حوله، فلا ينزعج منه و لا يحدث له ذلك أية أزمة نفسية مرضية كما هو حاصل لجل النخب الغربية مع تنامي تدين المسلمين من حولهم. فالمسلم المؤمن يشعر بأن معتقده متقدم بأشواط على كل معتقد غير إسلامي. بل الملحد من بين من ولدوا مسلمين هو الذي تجده في المجتمع الإسلامي في أزمة نفسية مؤلمة و متواصلة مع رؤية تدين بني جلدته من حوله، تماما كالأزمة التي يعاني منها أمثاله بالغرب. فهو الذي لا يجد الإلحاد قرارا في ذهنه يطمئن إليه و يغنيه عن التوجس من التدين من حوله و عن التهجم على المتدينين.
الوجه الثاني يكمن في التجربة التاريخية. غزى الغربيون المسيحيون و الملحدون أطرافا كبيرة من العالم الإسلامي و استعمروها و أهانوا أهلها و ما كان رد الفعل من المسلمين إلا بمقاومتهم كمحتلين من دون أبدا أي تجريح لمشاهرهم الدينية و لا التضايق من تدينهم و لا الخوف منه على أنفسهم و على أبنائهم بالرغم من حملات التبشير السافرة و المبطنة، اللهم نعتهم بما لا ينكرونه و هو حقيقة كونهم كفارا لا يؤمنون بالإسلام. بنى الاستعمار بالعالم الإسلامي كنائس من الحجم الكبير في قلب حواضره و في بعض قراه كما أشأ فيها مقابر خاصة بأموات المسيحيين تعلوها الصلبان و ما حدث أن فكرت المقاومة المسلمة لا في الاعتداء عليها و لا في تدنيسها. بخلاف ما نسمعه من حين لآخر من تدنيس قبور المحاربين المسلمين بفرنسا و الذين سيقوا تحت وطأة الجهل و الفقر للدفاع عن هذا البلد في حربها ضد النازيين.

و بالفعل كان عدم خوف المسلمين من ديانة المستعمر في محله، لأنه بالرغم من حرية التبشير و قوته و من انعدام معارضته لم يترك المبشرون من ورائهم متنصرا واحدا. فلما خرجوا من البلاد المسلمة بقيت كنائسهم الضخمة خالية إلا ممن خلفوا من ورائهم من مسيحيين غربيين أو من المسيحيين الوافدين من الغرب و من غيره لسبب تجاري أو سياحي أو دبلوماسي. أما عشرات الملايين من الأقوام التي حولها المستعمر الهولندي من الإسلام للمسيحية بجنوب غرب آسيا كانت جديدة العهد بالإسلام و لم تعرف منه إلا الشعائر، أما معتقداتهم فكانت بلا شك ما تزال أقرب لشركهم الوثني القديم من التوحيد الخالص، فكأنما تحولهم إلى المسيحية كان من الشرك إليها و ليس من الإسلام.

الوجه الثالث يكمن في هجرة المسلمين الكبيرة في العقود الأخيرة للعمل و الاستيطان بالغرب المسيحي و الملحد، حيث التبشير مرة أخرى مطلق اليدين و حيث باب الدعوة للإلحاد مفتوح على مصراعيه بكل الوسائل. و كل ذلك ليس فقط لم ينل من عقيدة المسلمين بل لم يثر في نفوسهم أي تخوف على دينهم حتى على فلذات أكبادهم التي كانت تنشأ و تتربى في مدارس الغرب المتنافرة مع كل دين.

و لي شهادة مفحمة على صلابة و قوة العقيدة الإسلامية في نفوس المسلمين كبارا و صغارا لدرجة أن المدارس الغربية و أولياء تلاميذها الغربيين المسيحيين و الملحدين هم الذين أصبحوا مع مرور الزمن يخافون على أبنائهم و بناتهم من تدين زملائهم المسلمين. و ما منع ارتداء الحجاب بالمدارس الفرنسية و ميل باقي الدول للاقتداء بفرنسا إلا مؤشر قوي على ذلك التخوف من تدين الشباب المسلم.

ففي ببلجيكا في السبعينيات من القرن الماضي، عشت تجربة لا زالت قائمة حتى اليوم، و لا يبالي بها المسلمون هناك بقدر ما تثير استغراب و دهشة غيرهم من الغربيين. فلأسباب سياسية يضيق المجال لتفصيلها هنا، يوجد بهذا البلد ثلاثة هيئات منظمة للتعليم العمومي، و هي **المدارس المسيحية** و **المدارس العلمانية التابعة للجماعات المحلية** و **المدارس العلمانية التابعة للدولة**. و توزَّع كل سنة ميزانية وزارة التعليم بين الأنظمة الثلاثة بحسب عدد التلاميذ الذين استطاعت كل من الهيئات الثلاثة استقطابه إلى غاية شهر أكتوبر. و الشاهد عندنا هنا هو ميل أغلب الجالية المسلمة من مغاربة و أتراك و حتى اليوم، لتسجيل فلذات أكبادهم بمدارس النظام المسيحي. و ذلك بسبب ما يروج بين أفرادها من أن تلك المدارس المسيحية هي أحسن و أكثر و أفضل عناية من غيرها بتلاميذها. و الذي يثير استغراب البلجيكيين هو غياب أدنى خوف عند تلك الجالية المسلمة على عقيدة أبنائها و بناتها من التبشير بتلك المدارس. و كان ذلك موقف الغير مبالي بمخاطر التبشير من آباء مسلمين ملتزمين بدينهم و غيورين عليه. و في مقابل ذلك لا يجرأ حتى اليوم أي أب بلجيكي ملحد على نفس المغامرة، من شدة الخوف على إبنه أو بنته من خطر التبشير.

و في الواقع أثبتت التجربة أن غياب ذلك الخوف من مخاطر التبشير عند أفراد الجالية المسلمة على معتقدات فلذات أكبادهم بالمدارس المسيحية **كان و لا زال حتى اليوم في محله**. تصرفوا بما تمليه عليهم فطرتهم، فلم يحصل أن تزعزعت عقيدة أبناء و بنات المسلمين بفعل التبشير القائم فعلا بالمدارس المسيحية. بل مع مرور الوقت و مع انتشار الصحوة الإسلامية في الجالية المسلمة بالخارج، تبين للمشرفين على هذه المدارس المسيحية و لا سيما لآباء تلاميذها من المسيحيين أن أبناء و بنات هذه الجالية المسلمة هم الذين أصبحوا يشكلون خطرا على العقيدة المسيحية بهذه المدارس. عظم ذلك التخوف لما رأوا الفتيات المسلمات يترددن عليها مرتديات للحجاب برغبة منهن و باعتزاز في سن مبكرة.
و أذكر هنا شهادتي على حدثين وقعا بإحدى المدارس المسيحية في السبعينيات، لما كان التدين بين بسطاء الجالية المسلمة حاضرا بقوة و متمثلا في كثرة المساجد و تعداد الكتاتيب لحفظ القرآن الكريم، و كل ذلك في غياب الصحوة الإسلامية التي نعرفها اليوم.

الحدث الأول : ففي إطار البعثة الثقافية المغربية كنت أعمل كمدرس للغة العربية و للدين الإسلامي لأبناء جاليتنا المقيمة ببلجيكا. فطلب مني يوما مدير المدرسة المسيحية التي كنت أعمل بها، التدخل من أجل الحصول على مساعدة من إمام المسجد كي يحرس التلاميذ المغاربة خلال فترات إحياء باقي التلاميذ البلجيكيين للقداس المسيحي بالكنيسة. تدخلت و قبل الإمام تلك المهمة. و لكنني سألت تلاميذي المغاربة عن سبب ذلك. فقالوا لي أنهم كانوا يُساقون ضمن باقي تلاميذ المدرسة المسيحيين مرتين كل أسبوع للكنيسة من أجل إحياء القداس مع عموم البلجيكيين. لكنهم بعفوية و بتلقائية و ببراءة الطفولة المسلمة كانوا يقومون و يصرخون في وجه الراهب و أمام كل الحاضرين، مستنكرين عليه ادعاءه بنوة عيسى عليه السلام لله تعالى. فكانوا يطلقون بداخل الكنيسة و بحماس قوي عبارات التوحيد بلغة القوم. و ذلك ما أثار حفيظة كل الحاضرين، فجاء طلب المدير السالف الذكر كحل للمشكلة. و ما كانوا يستطيعون الاستغناء عن قبول الأطفال المسلمين في مدارسهم لأن تلك المدارس كانت تستفيد من ميزانية الدولة بقدر تعداد تواجد أولئك التلاميذ بصفوفها.

الحدث الثاني: أثير استغرابي، لما سألتني إحدى الراهبات بنفس المدرسة عما أدرسه لتلاميذي، فقلت اللغة العربية و الدين الإسلامي. فقالت لي **"و القرآن كذلك؟؟"** فقلت نعم بتلقائية كأمر جد طبيعي. لكنني لاحظت تقعر وجهها من شدة الامتعاض من جوابي، و انصرفَت. و ازداد إدراكي لأهمية القرآن الكريم في وجدان المسيحيين و غيرهم من الملحدين لما كنت أُسْتَدْعى غير ما مرة، من طرف جمعيات مسيحية و جمعيات للملحدين، لإلقاء عروض عما أعرفه عن القرآن بالضبط. فكنت أعتذر في البداية خوفا من القول فيه بما لا يليق به. مما اضطرني لأقرأ ترجمة معانيه بالفرنسية ، فكانت تلك أول قراءة للقرآن الكريم كاملا. و محل الاستغراب هنا هو لماذا تكرار السؤال عند هؤلاء البلجيكيين عن معرفة القرآن بالذات و ليس الإسلام و لا الشريعة و لا غيرهما مما يتفرع عنه. فلا بد أن تكون في فطرة الإنسان مكان لاستقبال كلامه تعالى تطمئن به النفس و تستريح، و إلا شقيت و تعبت مصداقا لقوله تعالى في سورة طه {قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ

لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى **فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا** وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤)}

الـخـلاصـة

يبقى في الختام أن قراءتي في النص موضوع هذه الورقة علاوة على تجربتي بالغرب جعلتني أقتنع بأن كل الحملات على الإسلام و المسلمين من طرف غير المسلمين قديما و حديثا، مصدرها الأساسي إلى جانب عوامل أخرى، هو ما تحدثه رسالة التوحيد الخالص و تعاليم الشريعة الإسلامية من اهتزاز مؤلم في معتقدات جل النخب الغير مسلمة، فتجعلها تعيش أزمة نفسية كثيرا ما تحاول التخلص منها أو التخفيف من وطأتها بالاعتداء على رموز الدين الإسلامي. و سبب انحصار تلك الأزمة في نفوس النخب هو وعيها أكثر من غيرها بمعتقداتها، فذكرهم الله تعالى في القرآن الكريم تحت لفظ **"الملأ"** بوصفهم من كان دائما في مقدمة و على رأس الجحود لكل الأنبياء.

الـعـبـرة

فبالمرموز و حتى بالواضح، و من داخل مجتمعه الغربي، و من خلال هذه القراءة للنص موضوع هذه الورقة اعتبر كاتبنا **"الإسلاموفوبيا"** و ما يشوبها من معاداة للإسلام و للمسلمين نتيجة حتمية **لأزمة نفسية عقدية عند نخب مجتمعه**. و في القرآن الكريم وصف الله تعالى إثنى عشر مرة جحود رسالة التوحيد ب**"المرض في القلوب"**. و هو بذلك ليس بمرض عضوي و إنما مرض نفسي، صاحبه ليس بالمجنون بل في كامل وعيه. و من باب الدعوة إلى الله بالحكمة و الموعظة الحسنة، يجدر بكل مسلم أن يعتبر كل غير مسلم **مشروع دعوة** و ليس عدوا ميئوسا من الخير فيه. و عليه أن يصبر على أذى غير المسلمين المعادين للإسلام ما دام أذاهم لا يتعدى الكلمة و القلم إلى الاعتداء باليد و السلاح و لا إلى التحريض على مثل هذا الاعتداء. فذلك هو شأن الأطباء بعيادات علاج الأمراض النفسية، و ذلك كان شأن كل الأنبياء و الرسل الذين لاقوا دائما و في كل مرة من **الملأ** أي خاصة و عليّة أقوامهم شتى أنواع الأذى، فصبروا عليها في سبيل الله **من دون أن ييأسوا أبدا من الاستجابة لدعواتهم**، لأنه مهما بلغ جحود الإنسان فما لم يغرغر لا يعلم مآل عقيدته و خاتمته إلا الله. فمن كان، سوى الله، يعلم أن خالدا بن الوليد رضي الله عنه، و هو يحارب في صفوف المشركين في غزوة أحد، سيكون من بعدها سيف الله المسلول؟؟؟ و أمثاله كثيرون في تاريخ الإسلام قديما و حديثا.

و حتى المؤمن يجب عليه، وفق السنة الشريفة، أن لا يغتر و لا يغفل، فيَأمن على نفسه الانتكاس على عقبيه. عليه إذن أن يتحلى بالتواضع بدلا من الاستعلاء على غيره، و يبقى شديد الحذر و يطلب من الله **أن يثبته على دينه و يكتب له حسن الخاتمة**. و إذا ما طلب منه أحد المغلوبين على أمرهم أن يدعو له اللهَ بالهداية فعليه أن يطلب منه بدوره و في المقابل أن يسأل له الله الثبات، لأنه لا يدري مآله. جاء ذلك التحذير من الغرور في قوله صلى الله عليه و سلم : " فَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُ النَّارَ "[1]

المصطفى حميمو
hmimous@hotmail.com

الصفحة الرئيسية

[1] رواه البخاري، و رقم الحديث في صحيح مسلم 2634.